

الفصل السابع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير ١٧٢٧ ، نحو تسعة عشر مليوناً من الأتفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ - النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استملوا ألقابهم من الأرض إاى املاكوها (وهى ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن مليكهم . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعائة ألف من الأتفس^(١) . وكانوا شيعاً أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذى يتربع فى دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . ويلى هؤلاء فى منزلة أدنى ، طبقة أشرف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين ، ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقاً . ويأتى بعد ذلك الأدواق الأقل شأناً ، ثم الحاصلون على لقب مركز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسميه تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة فى مواكب عيد القربان أو حق الجلوس فى حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء نوى المحتد الكريم » .

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثي العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم في عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة في الحرب أو في الإدارة أو في التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل ستة آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، « حصل عدد كبير من المواطنين - رجال المصارف والجراحون والتجار والكتبة وخدم الأمراء - على براءة النبالة (٢) ، وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تفتنى على شاغلها لقب النبالة تلقائياً . وفي عهد لويس الخامس عشر كان في مقدور أى رجل عاды أن يحصل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفي عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هذا الطراز . كما أنه كان في الإمكان شراء اللقب بشراء ضيعة أحد النبلاء . ويحتمل أنه في ١٧٨٩ ، كان نحو ٥٩ / ، من مجموع النبلاء ينحدرون في الأصل من الطبقة الوسطى (٣) .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون ، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التي كانت بمثابة دور قضاء في كبريات المدن في فرنسا ، ولما كان يجوز للقاضي أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية - هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون في أروبيتهم للقرمزية ، وعباءاتهم الثقيلة والأكام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون في مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التي كانوا يقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى لحسب والنسب ، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافي عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين . وبلغت الطبقة التي تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف في وجهها أو يقاومها ، وزعماء الثورة وخدمهم هم الذين اسنطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف .

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الاهمال في إدارة ممتلكاتهم أو تغييبهم عنها ، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة في زراعتها ، أو إنبهاك التربة ، أو خفض قيمة العملة التي كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية . ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة ، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال ، قد يمتلك المرء في ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً . وكان هناك في بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعاني الفلاحون^(٤) . ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبذروا تبذيراً . فكان الدخل السنوي لمركز دي فييت ١٥٠ ألف جنيه ، ولدوق دي شفريرز ٤٠٠ ألف جنيه ، ولدوق دي بويون ٥٠٠ ألف جنيه . وأعنى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة ، إلا في حالة الطوارئ ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالاً ويسراً . ونخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ، فقد تفرض الطبقات الثلاث في مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمنا للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات . قال توكفيل « كان عدم المساواة في الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات في كل عام حيث أعنى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء^(٥) » . وفي عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها .

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب ، وأيا كانت طريقة إحرار الممتلكات ، فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها ، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار ، وسهروا على القانون ، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، و نفذوا العقوبات ، و تعهدوا المدارس و المستشفيات المحلية ، ووزعوا الصدقات . و في مئات من مناطق السيادة و النفوذ مارس السيد الإقطاعي هذه الوظائف و المهام ، بالقدر الذي سمحت به الأمانة الطبيعية في الإنسان . و قد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه ، و من ثم فإنهم أطاعوه و احترموه و في بعض الأحيان أحبوه .

و أدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو و ما بعده ، و تحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . و كان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثني و الثلاثين التي انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . و كانوا عادة ذوي كفاية و مقدرة و نيات حسنة ، و لو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . و قاموا بتحسين الأحوال الصحية و الإضاءة و تزيين المدن ، و أعادوا تنظيم الشؤون المالية ، و بنوا السدود و الخزانات على الأنهار من أجل الري ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، و زودوا فرنسا في هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل في سائر أنحاء العالم . و شرعوا في أن يغرسوا على جوانبها الأشجار التي تظلها اليوم و تزينها ^(١) . و سرعان ما زحزح تفوقهم في الدأب على العمل و المقدرة و الكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، و رغبة في التعجيل بهذه الزحزحة التي تركز الحكم في أيدي هؤلاء المحافظين ، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام في بلاطه الملكي ، و هناك عينهم في وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة و أوشحة منحدره . و فقدوا الاتصال بالشؤون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للانفاق على قصورهم و بطانتهم في باريس أو فرساي . و تشبثوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التي كانوا يقومون بها في مجال الاقتصاد و الحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالة على فرنسا .

٢ - رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز في كل ركن في
لحكومة . وقدر رجال الدين الكاثوليك في فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفا في
١٦٦٧^(٧) ، و ٤٢٠ ألفا في ١٧١٥^(٨) . و ١٩٤ ألفا في ١٧٦٢^(٩) . وهذه
الأرقام كلها من قبيل التخمين ، ولكن قد نفترض انخفاض هذا العدد
بنسبة ٣٠ ٪ في القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ،
وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩
أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف
رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ،
ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية^(١٠) ، ومن بين ٧٤٠ ديراً
كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدا رؤساء أديار ، بمصلحة رؤساء
أديار متغيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وينصف أو ثلثي دخل الدير ،
دون أن يكون مطلوبا منهم أن يحيوا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعا من
النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة
الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات
الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب
الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه في ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة
والثلاثين أسقفاً في فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوى
الألقاب^(١١) . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة
عاداتهم التي درجوا عليها في التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن
الإمير الكاردينال إدوارد دي روهان كان في القلماس يرتدى ثوبا كهنوتيا
له حواش من المخرمات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت
أدوات مطبخه من الفضة الخالصة^(١٢) . وفسر رئيس الأساقفة ديللون دي
ناربون للويس السادس عشر ، السبب في أنه أى رئيس الأساقفة ، استمر

« ممارسة الصيد بعد أن حرّمه على رجال الدين في أسقفيته ، بقوله « مولاي إن رذائل رجالى من عند أنفسهم ، ولكنى ورثت رذائلى أنا عن أسلافى » (١٣) لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة - من أمثال بوسويه وفينلون وبوردللو - وأفسح المرح الأبيقورى الصاخب فى عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبواوتنسان للترقى فى مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم فى ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم فى فرساي أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى بهجته ومسراته ومبازله ، فاحتفظوا بقدم فى الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقار فلاحهم (١٤) . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة ، التى كانت تضم أحياناً مدن بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكاً للأديار (١٥) ، وفى بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإدارى) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كبراي الذى كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة فى كاتوكبرسيس ، ونصفهم فى كبراي (١٦) . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة فى ضياع الأديار (١٧) وكان للكهنة فى سان كلود فى جبال جورا اثنا عشر ألفاً من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقال من الخدمات الإقطاعية (١٨) . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعى القائم ، كما جعلت هيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أى تغيير فى فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنوياً ، مع شىء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ما كان العشر فى الواقع ، بل كان فى الكثير الغالب جزءاً من اثنى عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين (١٩) . وبهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين عاش الأساقفة مترفين منعمين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفي المقام التالي بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة في فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقا لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض (٢٠) ، وثلاث الثروة (٢١) . وكان دخل أسقف سنس السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناريون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف ، أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على المليون من الجنيهات (٢٢) . وكان رأس مال كنيسة بريمونترية بالقرب من لاؤون ٤٥ مليوناً من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ فى تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع فى المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليوناً من الجنيهات تدر ثمانية ملايين فى العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شىء من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية فى الجامعات الوطنية إعانة اختيارية للدولة . وفى ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليوناً من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة (٢٣) . وفى ١٧٤٩ اقترح ماشول دى ارنوفيل المراقب العام المالى أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥ ٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس ونخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة فى « غضب شديد واصرار (٢٤) » . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التى قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلى الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقاً على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكي أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتباً عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة (٢٥) . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سبباً يدعو إلى الاعتقاد بأن الفلسفة في مقدورها أن تكسب الجولة في الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحه بالزيت المقدس وتوجيهه بأيدي رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك - في نظر الجماهير التي ليس في مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته - نائب الله الذي يتحدث بمقتضى التفويض الإلهي . ان الإرهاب الروحي الذي يبته رجال الدين في النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الإرهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة في المحافظة على النظام الاجتماعي ، والابقاء على طاعة الجماهير وامتثالها للحكومة والملك . وهل في مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الحارقين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساساً على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلاً) ، فإنهم أحبوا الراعي المحلي الذي شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحياناً كدحهم وكدهم في فلاح الأرض . أنهم تدمروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعي هم الذين أرغموه على جمعها ،

وأن ثلثي هذه العصور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضناها ما كانت تعاني من خلل وحاجة إلى ترميم ، مما تثن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفي سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن في آذانهم ، والاحتفالات هي المسرحية التي تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هي العطلات المحببة إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعي الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادئ أسطورية لتدعيم لسلطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوي والانضباط الخلقى ، وعلى أنه إيحاء بنظام إلهي يتجلى فيه معنى الخلود الذي خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف في هذه الدنيا . فكادت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الوالدان النلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية في البيت ، ونقلوا إلى أولادها الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان راعي الأبرشية يحب الناس كما أحوه ، فانضم إليهم في الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهب واخوة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة^(٢٦) كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشون على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات في القرية ، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجيء ، ووزعت الطعام على الفقراء يوميا^(٢٧) . وفي ١٧٨٩ ألحقت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة في

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدي الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللاتي افترقن عن أزواجهن ، ولل سيدات المراهقات مثل مدام دي ديفان التي رغبت في أن تنأى بنفسها عن صحب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً ، فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأمم أوريني (رئيسة دير للراهبات) عربة تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل في جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات في ألكس يرتدين الثنورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكن في أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضرورياً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأفاضل التي رويت عن الفساد الخلقي في الأديار في القرن الثامن عشر كانت مبالغاً إشنيعة مثيرة استخدمت في حرب الدعاية بين المذاهب المتنازعة ، وكانت الحالات التي لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعترف ذوى تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشكك أوصياء العرش غير الأتقياء ، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسينيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير في مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغيره من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتي المتقشف فرانسوا دي باريس (١٧٢٧) حج الجانسينيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته في مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشنجين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برثوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأتى بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعي التآثر مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفي ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين في مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطبية جانسنية قلبا وقالبا (٣١) . وتحدياً للمرسوم الملكي الصادر في ١٧٢٠ رفض صغار رجال الدين الامتثال للأمر البابوي الصادر في ١٧١٣ الذى استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسنين آثروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لتأسيس كان قد ارتضى الأمر البابوي . واسهم هذا النزاع فى إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لا يزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفى عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفى ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف فى القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم فى السجن ، وقضى مرسوم صدر فى ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف فى السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقلهن مدى الحياة (٣٢) وفى عهد الكاردينال فليرى حدث شىء من التراخى فى تنفيذ هذا المرسوم . ولكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك فى جنوب فرنسا (٣٣) . وفى ١٧٤٩ أمر برلمان بوردو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زوجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشتبه في أن آباهم من البروتستانت ؛ لتربيتهم وتنشئتهم في بيوت كاثوليكية . وإننا نسمع عن رجل ثرى من الهيجونوت أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامي ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتي ، وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفي ١٧٥٢ شتق في مونبلييه الواعظ البروتستانتي بيتز - البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفي نفس العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دي بمبادور ، بوضع حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت في باريس أو قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة في العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم في السلطة والنفوذ ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئآت ممن أمتازوا بالعلم الغزير والحياة التقية النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا في باريس العشور التي جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون اتسموا بالطهر والتقى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال لويس أنطوان دي نواي رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبیلا . وكان الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كلرمونت على الرغم من عظاته الزاخرة بألوان العلم والمعرفة ، والتي كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دي كايوس أسقف أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضي ليطعم الجياع ؛ ثم اعتذر لمن التمسوا رفده بعد ذلك بقوله « يا أبنائي ، لم يبق لدى شيء أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسوادي بلزونس مكانه وسط الطاعون الرهيب الذي اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ، وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفي هذا كتب ليمرتي : « انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا في خدمته بسبب العدوى ، فسار على قدميه فقيرا بائسا في الصباح إلى مواطن (م - ٢ قصة الحضارة)

التعاسة والشقاء ؛ كما كان يرى مساء وسط الأماكن التي اكتظ بها ولوؤها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليطفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفي ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التي لا معين لها . إن هذا المثل للذي ضربه هذا الأسقف الذي يبدو أنه محصن ضد أي أذى كان كفيلا بأن يدفع كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته في شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالي أحد بما يلقي من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الرباء بستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكيوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد في خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثولوكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم (٣٩) .

ولندكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخائفة والخرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقوى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصبية الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ - الطبقة الثالثة

١ - الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسي » الذي وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذي يفاخر به الفلاح الفرنسي اليوم ، وحالته في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفي ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آخذة في التحسن بالمقارنة بالمستوى المنحط الذي هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تراوح بين ٢٠٪ في نورماندى وبريتاني و ٥٠٪ في لنجدوك وليموزين^(٤٠) . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا - من ثلاثة إلى خمسة أفدنة - إلى حد اضطرروا معه إلى الاشتغال بأجر في المزارع الأخرى ليعولوا أسراتهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبل أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وخدمة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول في مقابل الأرض والآلات الزراعة والبذور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تتجاوز ٢٪ هي التي وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكي هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعي المحلي لعدة أيام في السنة تكفي لحرق أرضه وبذرها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك في البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعي ماشيتهم في الحقول ، مما يقع في زمام أرضه . (في فرائش كومتيه ، وأوفرن ، وبريتاني ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج^(٤١) . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ومخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا في كل مرة يستخدمون فيها شيئا من هذه . كما نفذوه مالا عن كل مستو قد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عبروه في نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه النرائب موجود بيننا الآن في أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين أخفقت إحصافاً شديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النار على حمام السيد ، وهي تأكل محصوله^(٤٢) وبناء على تقدير ينسم بالتحفظ بلغت الرسوم الإقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة^(٤٣) .

وفي بعض الأماكن بقي الرق بمعناه الحقيقي ، وقدر مؤرخ اقتصادي مشهور أن عدد الرقيق في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون^(٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن في ١٧٨٩ كان لا يزال في فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء^(٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانوناً أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا مجال إقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التي تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضي ، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد في البيت . وبهذا كان يدفع في الحملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة^(٤٦) وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كونه ، ليفتشوا عن المدخرات المخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرسوم لسيد ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزماً بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوماً في السنة ، في إقامة الجسور وبناء الطرق أو إصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو توانى .

ومد تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بدائية في فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب في إنجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذى يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة في كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت إنجلترا نظام الدورة الزراعية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريت الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد في المزرعة ، كمان كان السهاد قليلاً . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلاً إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز في ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسى . ففى ١٧١٨ كتبت السيدة مارى مونتاجو : « في كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحساناً ، في وجوه أضعفها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك في حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم (٤٧) . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا في وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « في ١٨٢٥ كان الناس في نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك في أوروبا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شيء دون أن يدوا شيئاً من التذمر (٤٨) » . وفى ١٧٤٠ حسب المركيز رينيه لويس دى أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز في العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا في حروب لويس الرابع عشر كلها (٤٩) . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين - وكانوا كلهم تقريباً فقراء - تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا أما الخذاء الوحيد (المرقع الواهى المثبت بالمسامير) الذى اقتناه عند زواجه ، فكان لزاماً أن يُستخدمه بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الخذاء (٥٠) » . وقد ر فولتير أن مليونى فلاح فرنسى كانوا يستخدمون نعلاً خشبية في الشتاء ، وكانوا يسرون حفاة الأقدام في الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضرباً من الترف (٥١) أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لاسقف لها في بعض الأجزاء في شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبنى بطريقة أقوى حتى تتحمل البرد والرياح في الشتاء . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طاوئاً (٥٢) . ففي فرنسا ، كما هو الحال في أي مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض الغزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة في الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة في الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأسرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختطفت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة في سكان فرنسا فيما بين عامي ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء في نظرية مالتس .

٢ - البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدام المنازل أدنى مكانة من الفلاحين في السلم الاجتماعي ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهتء إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا في المدن أعلى قليلاً من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين في الحوانيت والمصانع وحمالي البضائع ومتعهدي الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزلياً أو محلياً يقوم في أكواخ ريفية أو في الدور في المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة في المدن إلى حد كبير في الطور النقابي (نظام نقابات العمال وطوائفهم في العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعاً وفقاً للقواعد القديمة التي حددت النقابة والحكومة بمقتضاها ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمراً عسيراً ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية في تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرسقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول في سلك المعلمين الصناعيين إلى ألفي جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية . (٥٣) وكان العمل في الحوانيت يبدأ مبكراً وينتهي متأخراً . وكان عامل المياومة حول فرساي يبدأ عمله في الرابعة صباحاً وينتهي منه في الثامنة مساءً . (٥٤) ولكن العمل كان أقل اجهداً منه في المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة في معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثاً أو أربعاً من « الأيدي العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدايغ ومصانع الزجاج والمصابغ كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال في بوردو لا يتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة - مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الحزف الصيني في سيفر . وأخذت عملية التعدين في التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب في الوقود . وثار الاحتجاجات على دخان الفحم الذي يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس في باريس ، وفي لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب في دوفيني ، ومصانع للورق في أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعاً ملحوظاً في الشمال ، فاستخدم فان روبيه ١٥٠٠ عامل في مصنع واحد في آبقيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل في ليل (٥٥) . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافاً ورسوماً مذهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل في الصناعة في فرنسا ، يندر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكار (لحياكة الأقمشة المصورة) في ليون ، عمد عمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلقي بهم في عرض الطريق بلا عمل (٥٦) .

ورغبة في تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا - كما فعلت حكومة إنجلترا في عصر اليزابث - منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فإن روبية احتكار إنتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيماً صارماً موروثاً عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضاً متزايداً من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديداً لهذا المطلب ، قال فنسنت دي جورناي (حوالي ١٧٥٥) عبارة التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التي عبرت في الجيل التالي ، على لسان فرنسوا كني وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطي الذي نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضاً من هذه القواعد والتعليمات التي وقفت حجر عثرة في سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدي النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين في المدن الكبرى - حتى بالمعملين النقابيين - إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون في عملهم على المقاولين أو الملتزمين . (٥٧) وفي نطاق النقابات أجرى المعلمون - تخفيضاً في أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دوري . وكان الفقر في القرى شديداً مثلما هو في المدن تقريباً . ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، في المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث في تولوز ١٧٤٧ ، وفي باريس

١٧٥١ ، وفي تولوز ١٧٥٢ (٥٨) وكان القسيس الملحد جان مزاييه قد اقترح بالفعل ، حوالي ١٧٤٩ استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالنظام القائم (٥٩).

وفي أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزي توماس جراى في ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها يالغة الضيق والقنارة ، ودورها بالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق في كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » . (٦٠) وكانت باريس خلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خدام ، و ٢٠ ألف متسول ، وفيها الأكواخ الكثيرة والقصور الفخمة ، والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزعات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقير المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الجواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد في حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفي عام ١٧٤٢ رصف تريساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قذرة تماما ، مملوءة بالحصى الكبير الذي يصلح لإقامة المتاريس في أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحمل محل الفوانيس في ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع في ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنابير ماء في بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض في المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن والبارد ، فكانت امتيازا لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالتها من الفوضى في الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمعاء في « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطيف في المقاييس والتلاعب في الأسعار ورداءة أنواع السلع. (٦١) وكان بعض الحوانيث ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصحابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون في شراء حاجياتهم أساسا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين في دلاء أو سلال على ظهورهم، والذين أسهموا في موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التي يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة » إلى الموت للفيران « فقد نازعت الفيران الناس على تيسيرات السكنى في المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفيران في مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسي كان في زيارة مونتسكيو : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت في الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهي مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظري فيه على شخص واحد يسير بحطى وثيدة . وليس في العالم كله مثل الرجل الفرنسي وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . (٦٢) أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين في الشوارع والنافخين في الأرغن والدجالين بائعي الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف في الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوتي اليسير من الطعام والنبذ فهو أطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ - البرجوازية :

وفما بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى ، تضم لها أولاها البغض والكراهية، وتزدرىها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الإدارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهي طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة في حذق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكوا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التي تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغتاظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التي تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هي تعويض معقول له عما ينفق في صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكي صادر في عام ١٧٢٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئات لعبت دورا في كسب البورجوارية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التي كانت معوقة في الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوروبا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التي أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ، أسواقها ونفوذها السياسي في البحر الكاريبي ووادي الميسيسيبي وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهي ، المنفذ الرئيسي لتجارة الأطلنطي ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات في عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا في ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا في مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل ولويزيانا^(٦٣) . وفاقته نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثلتها من السكر الإنجليزي المنتج في جامايكا وباربادوس في الأسواق الأوروبية ،^(٦٤) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات في ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون في ١٧٥٠ .^(٦٥) وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التي استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة في ١٧١٥ إلى ٨٠٠ في ١٧٣٨ .^(٦٦)

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسي لغزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسيبي وبعض الجزر في البحر الكاريبي . وتحدث إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها في أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هي التي يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون في ١٦٨٣ قد وطلدوا مركزهم في بوندشيري على الساحل الشرقي جنوبي مدراس ، وفي ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالي كلكتا . وفي ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التي كانت قد أقامت لها مراكز في مدراس (١٦٣٩) وبمباي (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) - أنها مضطرة إلى نخوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التي تتمزق أوصالها .

ولم أرأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفي نقيض في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٤) فان ماهي دي لابوردونيه - الذي كان قد ضرب رقما قياسيا في الاقدام والمغامرة في إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية في المحيط الهندي - عرض على حكومة فرساي خطة « للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية في الهند » .^(٦٧) وهاجم مدراس بأسطول فرنسي ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسئوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضي بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لابوردونيه أصر في عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرت سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فرج به في الباستيل بتهمة التمرد والحيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما في السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفي ١٧٥٣ . وفي تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزي قوى بوندشيري (أغسطس

١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (اكتوبر). وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لا شابل أعادت مدراس إلى إنجلترا. ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة في الهند بسبب ضعف قواتها البحرية، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس في الغزو والفتح، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤). وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيون هزيمة منكرة في الطور الهندي من حرب السنين لل سبع.

وكان «رجال المال» في قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضي النقود على نطاق ضيق، من الطراز العتيق المحافظ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة، الذين يتعاملون في الودائع والقروض والاستثمارات، أو من «ملتزمي الضرائب» الذين يعملون للدولة باعتبارهم «وكلاء الدخل». وكانت القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضي فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريبا، في تلك الأيام. ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلهف على الاتجار في الأسهم والسندات، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤.

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء. فكان باريس مونتارتل يمتلك مائة مليون جنيه، ولينورمان دي تورنهم عشرين مليونا، وسمويل برنارد ٣٣ مليونا (٦٨). وزوج برنارد بناته من أزواج أرستقراطيين حيث دفع لكل منهن مهراً قدره ٨٠٠ ألف جنيه (٦٩). وكان سيداً مهذباً محبا لوطنه. وفي ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يخفيها جزئياً (٧٠). وعندما قضى نحبه (١٧٣٩)، أماط فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية (٧١). أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب «باريس» فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية. وتعلم منهم فولتير كثيرا من براعته المالية، فأذهل أوروبا لكونه فيلسوفا و«مليونيرا» في وقت معا.

وكان « الملتمون العامون » أيغض رجال المال في فرنسا في القرن الثامن عشر. وكان نظام « الملتم العام » قد أدخل في ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة - أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ - ولكي تنفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصياً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هذا العقد الراجح : ٨٠ مليوناً ١٧٢٦ ، ٩٢ مليوناً ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليوناً ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوماً في حيرة جرياً وراء الطرق التي تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملتماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولحق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامي ١٧٢٦ - ١٧٣٠ تجاوزت أرباح الملتمين العامين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات (٧٣) وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البلخ والترف ، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والتحليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « أطف الفلاسفة » هلفشيوس ، واحداً من أكرم « الملتمين العاميين » . وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دي ايبناى زوجة أحد الملتمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دي لا بولينبير الذي اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الروماني من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتلهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمناصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ - الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية أو قوة في الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التي كانت تتطلب عبير شجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب ، وكان أفرادها يشكلون البروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعي في ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلي الأسرات الواهنين الحاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجهد والعمل . وفي الحق أن نبلاء الرداء في البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ، وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنوات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء ، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم في باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون في تخطيط الحرب (٧٣) . إن نمط البرجوازية الفرنسية في القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله في القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة في فرنسا كانت أحسن إدارة في أوروبا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت في نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بانجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبي إلا في المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أي برلمان في وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً في تسيير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية في الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومي » . وبإحدى هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدي فرانسيز » في عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لثيم في السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفي حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامع . وفي مثل هذه الحالات كان السجن خفيفاً قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاز الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ - ١٧٥٦) في حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة في نفي شارل ادوارد ستيوارت حفيد جيمس الثاني من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش) .^(٧٤) وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألماني ولهم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس في المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمرا سرياً ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس .^(٧٥) إن أية إساءة إلى أحد النبلاء من رجل عادي ، أو أي نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدي إلى صدور رسالة سرية مختومة تتضمن أمراً بالقبض والزج في السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياءاً متزايداً على مر السنين في هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسي مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتي ، في سالف الأيام . وكان في مختلف أقاليم فرنسا . ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة في تنظيم القانون الفرنسي وتحديده في « قانون العقوبات » الذي صدر في ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألماني والروماني ، والتشريع الكنسي والمدني . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع في التحقق من إنساقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أي القوانين سارى المفعول في محل إقامته أو في قضيته .

وتولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات في الأقاليم ، أما في المدن الكبيرة فكان يتولاها « شرطة البلدية » ، التي نظمها ودرّبها أحسن تدريب وتنظيم في باريس ، مارك رينيه دي فوايه دي أرجنسون ، الذي لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرمي باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية » (٧٦) - عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى - مثل جين كالاس - شهورا في السلاسل والأغلال والتعذيب العقلي ، معرضاً للمرض في كل يوم بين الأقدار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجرمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق في قانونية أمر الاعتقال (هايباس كوربس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضي بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائي ونحفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية في فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة في عقاب عدم الأمانة في العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم يجرون مربوطين في ذيل عربة في الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن نخدمهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفي ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف في السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله (م ٣ - قصة الحضارة)

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجتسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد المجرم إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدى وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة فى باريس ، كانوا دائماً يتطلعون فى ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام (٧٧) » .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان فى الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التى تطبق القانون المحلى ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر فى القضايا الصغيرة فقط ، وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة . وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه ، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان فى كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التى تطبق القانون الملكى ، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها فى محاكم كنسية . وكان المحامون يحتشدون فى مختلف المحاكم وفيما حولها ، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان فى المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئة محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ، وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكومى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه فى الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسى كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاوني رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صرامة (برتوكول) تحدد وضع كل رجل في البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشریفاب معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرفة لطفت من رقابة نظام الحاشية . وهيات جو الغموض الذي لاغنى عنه للحكومة الملكية . وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هي الانهماك في القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلي « إن تسعة أعشار الناس في فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم (٧٨) وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موالد القهار جسيمة . ولكي يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محترماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج في البلاط ، تقريباً ، عشيقته ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكاه منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه ، اءادام دي بمبادور وهي سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفرع جلالته بناتهم البكارى . وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً في ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك في سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دي بوروبون . وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دي تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضرقت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً (٧٩) » وكان السيد الدوق دي تولوز « نفسه رجلاً طيب الشعور ، بذل كل ما في وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر في تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب خرب آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وتأمروا على سقوطه (٨٠) .

وأباح لعشيقته المركيزة دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغي، وكانت ذكية ، ولكن ذكاءها كان دون جماها ، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من ماري لزنسكا ، أملا في أن تستبق الملكة الشابة تحت تأثيرها . ومهما يكن من أمر فإن ماري سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير ، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذي يتولى تعليم الملك ، والذي كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول . ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر في الدولة .

وكان أندريه هركيل دى فليري قد عين أسقفاً في فريجيس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥ . وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبي . وكان الأسقف فارغ الطول وسيما مرناً لبقاً ، كسولا بعض الشيء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً ، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه . واعتقد ميشيليه وسانت بييف أن فليري ، باعتباره معلماً ، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته في ابتهاج خال من الهموم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم^(٨١) . ولكن فولتير ، الذي لم يكن صديقاً لرجال الدين ، أعجب بفليري ، وقدره أعظم تقدير ، معلماً ووزيراً ، على حد سواء وأخذ فليري على عاتقه أن يشكّل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة ، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها ، طيلة الفترة التي لم يبلغ فيها الملك سن الرشد ، والتي نعم فيها بحسن تأثير الوصي وتقدير الشعب . ولم يمن فليري قط بقيمة خدماته ، ولم يشك قط من الآخرين ، ولم يغمس يده في مكائد الحاشية ودسائسها قط . وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة في الداخل ومصالحها في الخارج . وصفوة القول إن سلوكه الواعي الحذر ومزاجه اللطيف جعله كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها^(٨٢) .

ولما علم فليري بأن تأثيره المستمر في تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط ، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب في هدوء إلى دير السلبيشيان في ISSY، إحدى ضواحي باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥) . وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فليرى أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفي ١١ يونيو ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، (٨٣) أمر لويس الخامس عشر ، بشكل مفاجيء ، بوربون « أن يأوى إلى شانتيلى ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام دي برى إلى قصرها في نورماندى ، حيث تولاهما الضمجر والسأم إلى أبعاد الحدود ، فتناولت السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فليرى يخطر إلى الأمام بفضل تراجعهم ، ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار ، وأصبح فليرى الوزير الأول في كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيو ١٧٢٦) . وكان آنذاك في الثالثة والسبعين من العمر ، وكَم من نفس طموحه تطالعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فليرى أنه قسيس ، فألغى ضريبة ال ٢٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه ، وطلب فليرى إليهم أن يساندوه في تنصيبه كاردينالا ، وكان في حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأذواق في مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هي أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو في أوج السلطة مثلما كان متواضعا وهو يمهد لها . وعاش في بساطة تكاد تتسم بالتقتير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا في شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفي نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » (٨٤) وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبنخ ومات فقيرا » . (٨٥) وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسن استغلال منصبه قط . (٨٦) وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحا ممن يحيطون به « (٨٧) وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا ، ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسينيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم في حزم وكياسة . وفي عهده تابع هنرى فرنسوا دى أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ - ١٧٥١) فى اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيلبيرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فليرى الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطماع الأسرية فى الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هياً لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادى . وبدا أن نجاحه برر مقدماً الحجج التى ردها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكماً يسيراً معناه أن نحكم حكماً صالحاً » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . ووعده بوقف التضخم ، وأوفى بوعدده . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الإيرادات فى قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التى بهتت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق فى انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذى ضربه فليرى فى الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفى مقابل هذه المفاخر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العاميين فى الاستمرار فى جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزيزاً منه للمشروع الضخم الذى وضعه المحافظون ، أقر نظام السخرة الذى فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام . وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولكنه قبض يده بشكل مغل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء في قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول في إنجلترا نجحت سياسة السلام التي انتهجها الكاردينال . فإن الرجلين ، ولو أنهما كانا على طرفي نقيض في الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه في ١٧٣٣ ، حضره مستشاروه في الشؤون الخارجية على القيام بمحاولة فائرة لاجلاس ستانسلاس لركزنسكى ، وهو حمو الملك ، على عرش بولنדה ، ولكن ستانسلاس اقترح اصلاح دستور بولنדה وتشكيل حكومة قوية ، وآثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولنדה عاجزة مهيضة الجناح ، فرفضتا هذا الاقتراح . وفي حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ - ١٧٣٨) طردتا لركزنسكى من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فليرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستانسلاس بأن يلجأ إلى نانسى ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لركزنسكى والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التي كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهذا ما حدث في ١٧٦٦ .

وجاهد فليرى الذي كان في الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينادى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه . ذلك أن فليسيتيه دى نسل مركيزة فنتيميل ، التي كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت في بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه ، كونت دى بل أيل ، حفيد المختلس البارع نيقولا فوكيه الذي كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فليرى رجل هرم أحمق ، وأنه في مهاجمة فردريث الثاني ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتمزيق إمبراطوريتها ، وأن فرنسا ينبغي أن تنضم إلى فردريك ، وتقسم الغنائم . وصبت العشيقة الفاتنة هذه الكلمات في آذان الملك الولهان . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدي الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فليرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضي في مشروع بل آيل .
فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد يندب بالخطر .
وأن على فرنسا أن تدخل في حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا في خير حال
في السلم ! وفي ٧ يونية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفي ٢٥
نوفمبر استولى بل آيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن
فليرى عجوز أحق .

وبعد عام في الحرب تخلى فردريك المراوغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة
مع النمسا ، وإذ تحورت الجيوش النمسية على هذا النحو ، تقدمت إلى بوهيميا ،
وشرعت في تطويق براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم
بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقض مضاجعهم وأزعجهم
الأهالي الذين أضمرُوا لهم العداة . وفي ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فليرى إلى
القائد النمسي كونت فون كونجزج نداء مدلا يناشده فيه شروطا معتدلة
للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرضى القرارات
التي اتخذناها ، وإنى أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » (٨٨) فأرسل
كونجزج الخطاب إلى مارياتريزا التي نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسي
لإنقاذ بل آيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفي ديسمبر ترك بل آيل وراءه
سنة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود
عند ايجو ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت في قلب الشتاء عبر مائة ميل
جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم
طيلة انسحابهم ، وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هذه
المسيرة اثني عشر ألفا في الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع
بالارتداد المذهل . وتخلي فليرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير في اسبي
حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو في سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رئاسة الوزارة بنفسه . منذ الآن

٥ - لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكا وهو في سن الخامسة ؟ ان الصبي الذي قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة في طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة في ١٧١٢ توفي والداه دوق ودوقة برجندى بالجاندى ، وأصبح الصبي وريث العرش ، وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

واتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فنتادور أشد القلق على صحته ، وعمت على وقايته من قسوة الجو ، وغرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراماً رهيباً للكنيسة . وكان فليرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر في أنه من الخير لفرنسا أن يكون مليكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريشال دى فيلرورا فقد دبر سماً عكسيا ، حيث قاده إلى نافذة في قصر التويارى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاي ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت مليكهم وسيدهم . » (٨٩) واقترنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا في سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليجد متنفسا في الحفر على الحشب وشغل الأبرة وحلب البقرة واللعب مع الكلاب . (٩٠) إن عناصر القسوة التى تكمن فينا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جبينه . ويروى أنه كان في صباه يجد للذة في صيد الحيوانات بل قتلها . (٩١) وفي سنى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت في سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللاتى شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك في « متنزه الأطباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقدر من الحساسية المقرونة بالحدر والحجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولكنه استوعب بعض التعليم الصحيح في اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارغ الطول نحيل القوام ، ولكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجدد . وقال عنه ماريشال دي ريشيليو انه « أكثر الصبية وسامة وملاحة في مملكته » (٩٢) بمحفظ متحف فرساي بصورة رسمها له فانلر ، وهو في الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبياني . وقارنه رينيه لوس دي أرجنسون باله الحب عند اليونان « ايروس » (كيوبيد عند الرومان) . ووقعت النساء في غرامه لأول نظرة . وحين مرض في ١٧٢٢ وصلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهاجا . إن هذا الشعب الذي كثيرا ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهاج لما راوده من أمل في أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش في الأسرة الكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو في سن الحادية عشرة ، ماريانا فكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولكن مدام دي برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المترديد بفسخ هذا القران المرتقب ، وتزويج لويس من ماري لزنسكى ابنة ملك بولندا المخلوع . وشرعت في تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسباني قط . وكان ستانسلاس في مأواه في ويزمبيرج في الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجرة التي كانب ابنته وأماها تعملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت ماري فرحة مبتهجة وقالت « أبي العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولنדה ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بتعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا « (٩٣) إن ماري لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش في أوربا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا يكللة المجد والرفعة ، وسيما قوياً ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفازات والمجوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساي ، وبراتب سنوي قدره عشرون ألف كراون ذهباً مدى الحياة . وتلقت ماري هذا كله في ذهول وهي لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفي ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل في ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك في فونتنبلو في ٥ سبتمبر . وكان هو في الخامسة عشرة ، وكانت هي في الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذي لم يكن قد أبدى بعد ولعاً بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها في حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوماً ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعودها الدعابة المرحة ، ومع ذلك افتقدت فرساي فيها الذهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحياة ، مما أصبح لزاماً أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت ماري لأخلاقيات الأرسقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثلاً للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى الجباب وريث له . وعلى مدى اثني عشر عاماً وضعت عشرة أطفال ، وفي سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . انها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصيبت في غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتست « الحرارة » التي تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دي برى والدوق دي بوربون محنة ابتليت بها وأصغت في صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فليري في حضرة الملك . وعندما تولى فليري زمام السلطة أرسل بناتها إلى ديرنا ببحجة الاقتصاد في النفقات . ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسج البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء في التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهينة وسط انفعالات الحاشية وعيبتها » (٩٤) .

وكان ينبغي للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دي برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خلية إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذلك اتخذ أربعاً على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحوية ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذرات خبيرة بأساليب الفنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دي نسل كونتيسة دي ميللى الشرف في أن تكون سبابة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . انها ، مثل لويزا دي لآفالير ، أحلصت في حبها لعشيقها الملسكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أنحتها فليسييتيه ، وكانت لتوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها في لويس (١٧٣٩) في قران رباعي مهرطق - لأنه ظل يتردد على الملسكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصاً رهيبة مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان في فم آثم خاطئ . (٩٥) إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغويق كائن أسطوري له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) - كما تروى إحدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سملك بحري) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد » (٩٦) . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ،
وعينها مركيزة فنتميل . وفي ١٧٤٠ آوت مدام دي ميللى إلى أحد الأديار ،
ولكنها غادرتة بعد عام واحد لترعى منافستها المنتصرة التي كانت تعانى
سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . ويكى الملك وبكت مدام دي ميللى
معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعها ، وعادت عشيقة له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدليد نسل ، البدينة الدميمة ، وكانت بارعة ذكية ،
عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديتها وأجوبتها السريعة .
واستمع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت
الرابعة ، مدام دي فلافاكور ، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن
الأخت الخامسة ، أقدرهن جميعاً ، هى مارى آن دي نسل دي لاتورنل ،
أقنعت مدام دي ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغز مارى قلب الملك فحسب ،
بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى
فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أهبة الملكية إلى كآبة الدير .
وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختها لها . وبعد ذلك بقليل
كانت مارى تشق طريقها لتصل إلى مقعدها فى كنيسة نوتردام ، فكان
فى هذا ازعاجا لجماعة من المصلين ، وتذمر أحدهم قائلا : « كل هذه
الضجة من أجل بغى فاجرة : » فقالت هى « سيدى ، ما دمت عرفتنى
جيذا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . » (٩٧) « ولا بد من أن الله
سبحانه وجد من اليسير أن يغفر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التي رسمها
لها نائديه - وجهه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، فى ثوب من
حرير مهفهف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين - لتفسر شدة
اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقدما
قدر بريق عينها . وعلى النقيض من دي ميللى كانت مارى تتلهف على
الثروة والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التي تدر ٨٥ ألف فرنك في العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقه (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى في البلاط ، كان يأمل في استخدام نفوذها في كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) . وكان لويس في بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهك في العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته : ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات في البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فإذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخندق .

وفي الخندق وفي حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب - مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل - الملك على القيام بدور فعال في الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة في مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع في درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الحطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فليرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفي ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفي ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذي بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة في أبته الملكية وتبعه بعد يوم واحد تخليقاته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التي يقودها الملك ، ولكن يخطط عملياتها

أدريان موريس دي نواي وموريس دي ساكس ، انتصارات يسيرة في كورتراي ومنان وأبيرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مسانبتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هيأت الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الالزاس واللورين ، مما اضطر معه ستلانسلال الذي لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لوفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متز أملا في استثارة همم الجيش المنهزم بوجوده . ولكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه في ١١ أغسطس ظن أن في خطر من أن يهلك ، وكانت نخليلته قد لحقت به ، وهي الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالي بصيحات الاحتقار والاستنكار وهي تغادو المدينة .

وفي الوقت نفسه كانت ماري لوكزنسكي قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملكة قائلا « لقد سببت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفري لي هذا كله » . فكان جوابها « ألا تعرف أنك لست في حاجة أبدا إلى الصفح من جانبي . إن الخطأ في حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دي موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنون بعضهم بعضا في الشوارع ، وعانق بعضهم جواد الرسول الذي حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جدا » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبونني إلى هذا الحد ؟ » (٩٨) إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأُنقذ فردريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمساوى
المجرى ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى
جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، وراه يستولى على فريبورج - أم بريسجو . وفي
نوفمبر عاد الملك إلى فرساي ، وأعاد مدام دي شاتورو إلى سابق حظوتها
ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن في ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت
من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخلية نجها . ودفنت في ظلام الليل ،
تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن
تناول الأسرار المقدسة في عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات
جيشه ، وكان قائد ألماني بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس
دى ساكس كان ابن أوغسطس القرى ناخب مكسونيا وملك بولندية .
وكانت أمه هي الكونتس ماريا أورورا فون كونجز مارك التى اشتهرت
بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها
أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفي سن الثانية عشرة تزوج
موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق
مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) .
وبعد أن أظهر شجاعته في حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات .
وفي ١٧٢٠ حصل على منصب في الجيش الفرنسى . وبعد أن نجح من كل
محاولات زوجته السابقة لقتله بالسم ، عثر على خلية مخلصه في شخص
أدريين لكوفرير التى برزت مكانتها فى الكوميدي فرانسيز آنذاك
(١٧٢١) . وفى ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة فى كورلند (جزء
من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد
على فقد حبيبها ، منحتة ، عوناً له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من
من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ،
بالإضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ،
قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصر روسيا وأياه ساندا مجلس اللدب البولندى فى مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندى الذى لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصه له ، ولكنه كان قد ورث عن أبه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الخطوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الحلقى الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادهن اخلاصهن ، أصبح موريس فى ميدان القتال عبقرى لا يجارى فى استراتيجىة الحرب ، جريئاً فى تفكيره ، يقظاً لأى خطر يتهدده ، وأية فرصة تسنح له . وقال عنه فردريك الأكبر منافسه الوحيد فى ذاك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لأى قائد فى أوروبا » (١٠٠) وفى ربيع ١٧٤٥ عين قائداً عاماً للجيش الفرنسى ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجبهة . وكان على شفا الموت آنذاك فى باريس ، حيث أنهكه إفراطه فى الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال فى مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » . (١٠١) . وفى ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفاً من الرجال الأشداء ، فى فونتنوى . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذى أقعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسي من الأغصان المجدولة . ويروى لنا فولتير ، فما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ، (١٠٢) أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرعى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروخ عن الفرنسيين « أيها الرجال ، نحن لن نبدأ بإطلاق النار ، فهل تبدأون أنتم » (١٠٣) وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غالياً ، حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطاً و ٤٣٠ جندياً . (١٠٤) واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أنجلهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواده ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون ما ليكهم في خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دي ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان في أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامّة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام في ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واختلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز في هذا الالتحام المرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه نجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى الدوفين ولي العهد قائلا « انظر يا بني كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاياك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقوه إلى فرساي ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتائج فونتنوى بتوقيعه صلحا منفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستيلا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فليب الأسباني . وعاش موريس أوف سكوسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرما ، ومثقلا بالأمراض . وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغواني ، ليدون بعض نظرات فلسفية حاملة : « ماذا نرى اليوم في الأمم ! نفر من الناس يعيشون في فراغ وسرور وجدة على حساب الجماهير التي لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دي قوايه ، مركزيز أرجنسون الذي تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات (١٧٤٤ - ١٧٤٧) ، كتب في ١٧٣٩ « تأملات في حكومة فرتسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا في ١٧٦٥ . وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع في السكان قيمة ، وينبغي أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الانفاق على زراعاتهم^(١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المسكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة في الدولة ، أثبتوا عجزهم في الإدارة ، وهم عالة على المجتمع » . وإذا قال أحد بأن هذه المبادئ تتفق مع الديموقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا . وإنه ليصدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغي أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية في يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هي القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء^(١٠٨) . واستبق دي أرجنسون الفلاسفة في التطلع إلى الاصلاح على يد ملك مستنير ، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا في ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة في طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفي ١٧٤٧ استسلم لويس لتحرير نواي ومورباس وبمبادور وعزل دي أرجنسون . وفقد المركز ثقته في الملوك . وفي ١٧٥٣ تنبأ بما حدث في عام ١٧٨٩ : « إن المسارئ والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدي إلى ثورة وطنية . . . وكل شيء يمهّد الطريق إلى حرب أهلية . . . وأذهان الناس مهياة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى في الدين والحكومة معاً (١٠٩) .

أو كما قالت خليعة الملك الجديدة « من بعدى الطوفان » .

مدام دي بمبادور

هي من أشهر النساء في التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكنتها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمي فولتير وتنقذ موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم . ومن العسير أن ننظر إليها في الصورة التي رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ في الافتتان بالإنسان . فهل كانت دي بمبادور إحدى روائع الطبيعة ، أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها الهزيلة تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسية أو الشهوانية السطحية في صوره العارية المشرقة . وبدلاً من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ، والذوق في ملابسها . والرقعة الناعمة في يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف الأسمر عالياً فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته ، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكاتها المرحة المستهترة ، ولا ريحها الوديعه ، بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابه إرادتها التي لا تلين ولا ترحم أحياناً .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ، فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقراطية للطبقة الوسطى التي نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذي لم يستطع يوماً أن يتخلى من اسمه « السيد سمك » (بواسون بالفرنسية معناها سمك) . وآتهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام سنقاً ، ولكنه هرب إلى همبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين العجزة . » وشغلت بالارتقاء في أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف في همبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملتزم ثرى ، هو شارل فرنسوا لينورمانت دى تورنهم ، الذى تولى الانفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعتها مدام بواسون فى ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، الجهير العظيم ، للغناء ، وكرييون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت فى الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح فى الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها فى حد ذاته اغواء . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثارى إلى حد تحمست له مدام دى ميللى فى استحسان عزفها . ولما كانت جين فى التاسعة من عمرها ثنأت لها سيدة عجوز (كافأتها فيما بعد على نبوعها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى لملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى الملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفى سن العشرين أغراها مسيودى تورنهم بأن تزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج يحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرًا مزهوبًا . والتفت فى منتدى مدام دى تىسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير فى بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد فى العالم ، إلا الملك ، على أن نخون زوجها أو تكون غير مخلصه له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة فى أن هذا الاستثناء من للمستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جالها له ، به . وفي ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت في أوتيل دى فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحديث إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهي ترقص ، وفي أبريل رآها في مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية في فرساي . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلى الملك رتدخول السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا في فرساي فقبلت . وحث مسيو تورنهم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال في الغضب مثل أى برجوازي ، أو بخلق مشكلة (١١٤) وعين الملك سيودى أتوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت تحبها . وفي سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المركيزة دى بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التي هدأت من روعها ولاطفها في ارتباك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرالابد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فإنه ، على أية حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البغي) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت بباريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت في صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطتها .

وإذ رأت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذى يملك كل شيء ، ولكن كل شيء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته ، فلإنها تفننت وأظهرت عبقريتها في تسلية والترفيه عنه . فألهته بحلبات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والنزهات والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحمديتها البارع وذكائها . وأقامت في فرساي

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال في أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هي نفسها في مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة في فرنسا » (١١٥) . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغي » . وتفضل بأن يكون دمثا معها في دنيا النفاق . وأصاب الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التي عزفها بشكل يأسر لبه ، حتى نسي خوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريبا . وما هي إلا بضعة سنين حتى نحارت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دي بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً ، وأنها كانت عبثاً ثقيلاً على خزانة الدولة ، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألقت غرفة ملابسها بآنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلساني أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة في درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثريات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أما سقفونها فكانت مغطاة بالصور التي رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التي تهج الحواس وتثيرها . ولما أحست بأنها سبينة وسط هذا الترف والبذخ ، سحبت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشييد أو توثت قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضيعة والقصر في كريسي في دري ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة في غابات فرساي وفونتنبلو وكومبيين واتخذت من « أوتيل دي بونشارتران مقرأ لإقامتها في باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دي افري في شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ في جملته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنياً (١١٦) ، كان جزء منه فنا بقي في حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنياً سنوياً (١١٧) . واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب .

وجمعت دي بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الروعة وأصبحت المحجى الرئيسي الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من من النعم والعطايا من الملك . . . وحصلت لذوى قرباها على المنح والهبات والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهىء لابنتها الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانفان » شيئاً يذكر ، ولكنها كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دي فتمبل ، ولكن فانفان ماتت فى سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل - الوسيم الدمث - فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعو « بالأخ الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعو إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركز دي مارينى وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته فى جد وكفاية ، إلى حد رضى معه وسر به الجميع تقريباً . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوروبى ، ويرجع هذا إلى حد ما إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت محاولاتها فى أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ، وما لمست شيئاً إلا وصار جميلاً . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يهر الأبواب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما يكلفها ٥٠٠ ألف جنياً سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة بتمويل مصانع الخزف فى سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل وساعات الحائط والمرواح والمركبات وأوانى الزهر والزجاجات والصناديق والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فتنه دقيقة سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبحت « ملكة الروكوكو » (١١٨) . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها في النفقة يرجع إلى الرعاية التي أسبغتها على الرسامين والمثاليين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجاري الأثاث الفاخر والمعماريين . وأغدقت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة ، فأنت بذلك التكرار المبتذل لموضعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت في تسامح باسم تدمير لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأرائك والكراسي والأشرطة ، وعلى « وردة بمبادور » المصنوعة من الخبز المفضل لديها ، وفي هذه الحقبة ، لا في عهد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوروبية ذروته .

وربما كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ في التاريخ ، و ٣١٥ في الفلسفة ، ومجلدات كثيرة في الفن ، وبعض مجلدات في السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص في الحب . وواضح أنها إلى جانب تسليية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هي نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، في رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان . وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده في رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تنجله وتخرجه بقولها : بأن فردريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتباً قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما في بروسيا . وقد أكون مضطراً إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يعدهم على أصابعه « موبرتيوس ، فونتيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتكيو ، كاردينال دي بوليناك » . وأضاف من كانوا حولهم ، « دالمبرت ، كليرو ، كريبيون الابن ، بريفوست » . . . وعندئذ تهذ الملك قائلاً « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معي طوال خمسة وعشرين عاماً (١١٩) » .

وعلى ذلك آحلت بمبادور مكان الملك في رعاية الأدب . فأتت بفولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميه من سوء تصرفاته ، وساعدت مونتسكيو ، ومارمونتيل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعاني كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً في اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته « كاتيلينا » ، وأصدرت تعليماتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كيرني طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطي وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة في فرساي ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروي مارمونتيل : « ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى « صالونها » فلإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث (١٢٠) » .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء في الحاشية وعلى رأسهم الدوفين ، بعين الرعب والقزع إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدتها من الصفة الدينية أو انزعائها من يد الكنيسة ، إذا كان هذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة (١٢١) . وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يمتنع عن مناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة (١٢٢) . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التي يؤثرها بحبه ، نفوذها في التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففي ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديداً على تناول القربان المقدس . وفي محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واطبت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريئة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهنا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بيروسو ، ولكن خلفه ديمارتس وكان متشدداً مثله . وثبتت بمبادور في مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهري . ولم تغتفر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا « تمحوها » مأخذ الجذ ، وربما كان لإستياها منهم دور صغير في طردهم من فرنسا في ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق في أنه لم يعد لها اتصال جنسي بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أعدائها هذه الحقيقة (١٢٣) . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض نخلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة في الإستجابة للنيران المتقدة بين جنبيه (١٢٤) ، راعرتف بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أو هن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسي وتملكه الغضب (١٢٥) . وتناولت « عقاقير الحب » (١٢٦) دون نتيجة تذكر ، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها في البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفي ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذها مدام دي شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بشمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع توضيحيتها وسرهان ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوى المحظية الأولى المنهوكة إلى « منزله الأطباء » البغيض .

وفي « منزله الأطباء » في طرف ناء من فرساي جهاز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خدمتهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس في جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما في مسكنهما متنكراً في زي كونت بولندي عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن في وقت واحد أكثر من اثنتين (١٢٧) ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدربن على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حلت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدها على العثور على زوج لها في الأقاليم ، وكان الأطفال

الدين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دي بمبادور بأمر هذا « الحریم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده ، وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دي هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلبات لن يسلبننى إياه (١٢٨) » .

ولم تنزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « مستدى الأطباء » هذا لخلياتهم (١٢٩) . ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن نخاب فألمهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفترة طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « نخليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلازمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القداس . ولما كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتى ناصبها العدااء منذ زمن طويل فكان يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد لذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التى لا تنضب معينها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، ونحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها ، وكأنها تشترك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزحمون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشؤون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التي كثيراً ما كانت ثابتة (١٣٠) . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري . وفي ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة . ووافق الملك ولكنه أبطأ في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالاً إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق ، وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ ملحقاً « بقصر الانفاليد » .

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « النقض المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا في باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة التقيية مارياتريزا التي خاطبت بمبادور « بصديقتي العزيزة » ، و « ابنة عمي » ، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهينة إلى المركيزة دي بمبادور « بحكم المرأة » في البلاط الفرنسي . وكانت مدام دي شاتور وودار جنسون قد وجهها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة - التي قويت بيلانتصار في حرب الوراثة النمساوية ، والتي لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندي أحسن تدريبهم تحت إمرة قائد قدير طموح لا يبالي بأية مبادئ خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً - إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التي كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أي عون أو تأييد من أسبانيا في ظل حكم آل بوريون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحججة حين عقدت بروسيا في ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع إنجلترا - عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسي على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دي بمبادور التي عادت الآن تبصق دماً ، وكانت في الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها في التمهيد لاشعال حرب السنين السبع .